بعد تعثر المنهج التاريخي وعجزه في مواطن كثيرة على الإحاطة بالظاهرة الأدبية من جوانبها المختلفة، أصبح لزاما ظهور منهج آخر لسد النقص وتقوية جوانب الضعف، فكان المنهج الإجتماعي، الذي يعد حسب الباحثين سليل المنهج التاريخي، بمعنى أن المنطلق التاريخي كان هو الإطار الطبيعي الذي تبلور فيه المنهج الاجتماعي عبر محوري الزمان والمكان، فهو جاء امتدادا للمنهج التاريخي وثورة على بعض مقولاته لاسيما تلك التي تدعو إلى الجمود وتقديس البطولات والأمجاد.

فبتزايد الوعي الإجتماعي ظهر من النقاد من دعا إلى أن يكون للأدب وظيفة اجتماعية وغاية سامية يسعى إلى تحقيقها، ذلك ما عبر عنه بدوي طبانة في قوله: "اتسعت دائرة البحث في غاية الأدب، وكثر القائلون بوجوب نهوض الأدب بمهمة الإصلاح الإجتماعي، ومحاولة النهوض بالأمة وحملوا الأدباء تبعة التخلف الإجتماعي الملحوظ، وقد وازنوا بين أدباء العربية وأدباء أوروبا وأمريكا من هذه الناحية، وخلصوا من الموازنة إلى أن من عوامل إكبار الأدب الأجنبي أنه استطاع أن ينهض بعبء الإصلاح الإجتماعي، وذلك بشرحه العلل والمعوقات في بعض طبقات الأمة، وأن من أهم أسبابه هو أن الأدب العربي لا يتحدث إلا عن نفس صاحبه ومطامحه وآماله ومتاعبه. وعبر النقاد عن آمالهم في أن يتجه الأدباء اتجاها إصلاحيا يجاري نهضة الأمة ويتابع خطواتها في سبيل التقدم"، كما دعا إلى ضرورة التخلص من النرجسية الزائدة والذاتية الممقوتة في الإبداع وتغيير زاوية النظر لتتماشى ومتطلبات الشعوب وتطلعاتها.

2- مفهوم المنهج الإجتماعي:

هو المنهج الذي يربط بين الأدب والمجتمع بطبقاته المختلفة، فيدرس الظاهرة الأدبية على اعتبار أنها جزء من النظام الإجتماعي، كما يدرس أسباب نشأتها وتفاعلها مع الأنظمة الأخرى والغاية التي ترمي إليها، وبذلك يكون الأدب ممثلاً للحياة على المستوى الجماعي لا الفردي، ويصبح المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الأدبية. ويوضح صاحب كتاب "مناهج النقد الأدبي" الفارق بين علم الإجتماع الأدبي والنقد الإجتماعي فيقول: " إذا كان علم الاجتماع الأدبي يدرس أشكال النشاط المتبادل بين الأشخاص الذين يتدخلون في عالم الأدب، فإن النقد الإجتماعي يفسر نوعيا كيف أن الكتابة حدث ذو طبيعة اجتماعية. تبعا لفلسفة كل ناقد وفهمه يتوقف عرضه لدور المجتمع عاملا حاسما أو مرافقا في قيمة الإبداع الشعري(...) وفي كلتا الحالتين يدرس المنهج الاجتماعي تأثير الجماعة في القيمة الجمالية، بل ويعلي من قيمة كاتب ما لأن عمله شف جيدا عن عروق المجتمع"

يتضح من القول السابق أن المنهج الاجتماعي ينظر إلى الأدب من خلال المجتمع، وبالتالي فهو يبحث عن المساحة المشتركة بين المبدع وأفراد مجتمعه عبر التجربة الإبداعية التي يعبر عنها، والتي تعطينا صورة عن الحياة الاجتماعية وما ميزها من أحداث ووقائع في الفترة التاريخية التي كتب فيها النص. وبالتالي يصبح الإبداع وفق هذا المنظور في خدمة المجتمع والفرد في خدمة الجماعة، وقد يساعد هذا النوع من النقد في تحريك الشعوب ودفعها إلى التطور والرقي.

3- نشأة النقد الإجتماعي وتطوره:

تعود البدايات الأولى للنقد الإجتماعي إلى الفيلسوف أفلاطون، الذي يعد أول ناقد يهتم بالناحية الإجتماعية، ويعتبرها معيارا لاستحسان الشعر، فقد حوت جمهوريته المثلى الشعراء الذين تدعو أشعارهم إلى تأجيج حماسة المحاربين، بينما طرد الشعراء الذين تفسد أشعارهم أخلاق الناس. وهي إشارات ذات بعد اجتماعي للأدب. وفي العصر الحديث يعد الفرنسي تان أول من أقام دراسات وأبحاث جادة تربط بين الأدب والمجتمع، ونظر للأدب على أنه انعكاس للمجتمع، لما للبيئة من دور بارز في صياغة شكل الظاهرة الأدبية.

ولقد أسهمت نظرية الانعكاس التي ظهرت في القرن التاسع عشر مع النقد الماركسي، في صياغة مفاهيم متطورة تدعو إلى الانفتاح على الواقع الاجتماعي والثقافي والإبداعي، فيصبح الإبداع وفقا لهذا الطرح انعكاسا للمجتمع، يصوغه المبدع بطريقة واعية وفي شكل فني يعبر عن الذات المبدعة، فالانعكاس لا يعني النقل الحرفي للمجتمع بقدر ما يعني المشاركة الصادقة لمشاكل وهموم وتطلعات هذا المجتمع، وإعادة صياغتها في حلة فنية مؤثرة، تبرز فيها جمالية الذات المبدعة وهي تتفاعل مع الذات الجماعية في انسجام واتساق شديدين، بحيث يصعب الفصل بين الذاتين.

وتعد جهود مادام دوستايل في هذه المجال مفصلية وحاسمة، لاسيما بعد إصدارها لكتاب "حول الأدب من حيث علاقته بالنظم الإجتماعية"، وقد أكدت من خلاله أنه لا يمكن فهم الأدب وتذوقه تذوقا حقيقيا في معزل عن الظروف الاجتماعية التي أدت إلى ظهوره، فالعلاقة بين الأدب والمجتمع وطيدة، وكلما توفرت الحريات الفردية والعامة كلما تطور الأدب وارتقى. وتضرب مثالا لذلك بالأدب الفرنسي الذي شهد تطورا كبيرا بعد الثورة الفرنسية، بفضل الحريات الشخصية التي وفرتها هذه الثورة، فنتيجة لتغير الظروف الإجتماعية تغير الأدب هو الآخر، ليشمل التغيير كافة أنحاء أوروبا. كما دعت إلى ضرورة اتحاد المنظورين التاريخي والاجتماعي لرؤية التطور الأدبي وتفسيره.

وقد لاقت آراؤها تأييدا كبيرا سواء من معاصريها أو ممن أتى بعدها، فها هو بونالد يلقي عبارته الشهيرة "الأدب تعبير عن المجتمع"، والتي أسهمت بشكل جلي في بلورة ما سمي بعلم اجتماع الأدب، الذي يُعنى بالتأويل الإجتماعي للآثار الإبداعية من خلال جدلية العلاقة بين الأديب وواقعه الإجتماعي، حيث يعيد الأديب صياغة عناصر الواقع بلغة إبداعية جديدة.

ثم يتعاقب نقاد وباحثون، يطورون في كل مرة نظريات هذا النوع من النقد، ففي منتصف القرن العشرين يقدم جورج لوكاش مؤلفه "الرواية التاريخية" الذي حاول من خلاله المزاوجة بين النظرتين الإجتماعية والتاريخية للأدب، بحيث ربط بين نشأة الأجناس الأدبية وطبيعة الظروف السائدة في نفس الفترة، ليتوصل إلى أن نشأة الرواية اقترنت ببروز الرأسمالية العالمية، وصعود الطبقة البرجوازية.

ثم يأتي غولدمان الذي بدا متأثرا كثيرا بسابقه، ويصدر كتاب "سوسيولوجيا الرواية" الذي يؤكد من خلاله على أن الأعمال الأدبية المكتوبة في فترات زمانية معينة هي عبارة عن بنيات دلالية تعكس رؤية الأديب للواقع أو العالم، وللتوصل إلى فهم هذه الرؤية ينبغي النظر إلى الأعمال الأدبية على أنها وحدة شمولية كلية، وإلا ستظل الرؤية قاصرة وعاجزة على الإهتداء إلى الدور الحقيقي الذي يؤديه الأدب والفن في حياة الشعوب والمجتمعات.

4- المنهج الإجتماعي في النقد العربي الحديث:

أما في العصر الحديث فقد تلقى العالم العربي هذا المنهج وهو يشهد تطورات اجتماعية وسياسية كبيرة، تمثلت أساسا في حركات التحرر القومي من الاستعمار، وكان لزاما أن يستجيب الأدب والنقد لتلك المتغيرات، وتجلت تلك الاستجابة من خلال المواقف من طروحات الماركسيين، التي تمثلت في الأحاديث والمناقشات والمعارك الأدبية والفكرية التي دارت بين فريق من الأدباء والنقاد كأحمد أمين وسلامة موسى وتوفيق الحكم وغيرهم.

وقد ظهرت عديد المؤلفات ذات التوجه الإجتماعي، مثل: "في الثقافة المصرية" لصاحبيه محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، وهو كتاب يدخل في إطار التغير الإجتماعي، ويبرر له صاحباه بحاجة المجتمع إلى هذا النوع من الكتابة: "إن المفكر أو الفنان أو الأديب عندما يعبر إنما يختار مادته الخام من عناصر هذا المجتمع ومن علاقاته المتفاعلة، أراد هذا أم لم يرد، قصد هذا أم لم يقصد. وإن هذه العناصر والعلاقات تكشف في داخلها عن موقف محدد من هذا الاخطبوط الاستعماري الجاثم على وجداننا القومي، المعرقل لعملياتنا الامتاجية الابداعية".

وصفوة القول، أنه رغم العناية الكبيرة التي حظي بها هذا المنهج، إلا أن انتقادات شديدة طالته، أهمها: تحويل الأدب عن طبيعته الفنية والزج به في دهاليز الدعاية السياسية، وتحويل الأدباء من فنانين ومبدعين إلى معلمين ومربين في المجتمع، لأنهم اهتموا بقضايا عصرهم على حساب نصوصهم، وعليه اختفى الإبداع وأصبح النص مجرد وثيقة إجتماعية جافة تفتقر إلى الجمالية والفنية. كل تلك العوامل مجتمعة أدت إلى ظهور النقد النفسي.